لأن الرجل إذا خرج من بيته وخالفه فيه جاره إلى زوجته مائة مرة فى اليوم لم يمكنه أن يعلم ذلك لقرب ما بين المسكنين . ولهذا أهل باريس أقل غيرة على نسائهم من جميع الناس » . فهذا الكلام وما يشبهه ليس وصفاً لظاهرةٍ يراها الكاتب ، ولكنها رأىٌ فى ظاهرة مستجدة عليه لم يعرفها ولم ير إلا مكمن الخطورة أو ظلال الصورة . وهو ينكر الإرادة الإنسانية أو يلغيها ويصوِّر الأمرَ وكأن الرجلَ سجاناً ، إذا غاب انطلقت الأسيرة ترعى ، دون أن يكون لها إرادة ، أو رأى ، أو إحساس . ويبدو أن المنازل متعددة الطوابق كانت بعيدة عنه لأن طبيعة البيوت فى معظم الريف اللبنانى أنها من دور واحد للأسرة ، والاختلاط فى السكن لم يكن قائماً . ولذلك صور له خياله أن هذه البيوت سبب للفساد الأخلاقى ، كما أن تقبل الظواهر الحضارية المخالفة والمختلفة مع ما ألفه الشخص يختلف باختلاف وعى الإنسان وقدرته على الفهم ، والإحساس بمعنى الاختلاف والتمايز .

فهل كل ما رآه فى الغرب هو تلك الملاحظات الظاهرية بحيث اكتفى بهذه التصورات التى رأى بعضها وتخيل بعضها الآخر ؟ الحقيقة أن الشدياق لاحظ عدة ملاحظات عن أحوال الإنسان الأوروبى سواء فى مجال التدين أو المجال الاقتصادى والاجتماعى . ولكنها فى صورتها العامة ملاحظات ذاتية فردية